مختارات من «مي» (١)

رحمةُ الله عليها

ونعمنا اللهُ بما خلفتهُ من أدب رفيع

١ — عند قبر أبي الهول (٢)

الأفق واسع واسع، والليل عميق عميق، وأنوار المساكن وأضواء الشهب في أحشاء الدجى جراح وحروق، وأصوات المدينة تحدث عن أوصاب المدينة جاهلة ما عداها، لذلك جئت انشد الاختلاء والسكينة وراء تلال فصلت بين عمران تبشر الفاجر المقيّد وعمرانك المستقلّ في حضن السكوت غير المتناهي

تتعالى على البسيطة شعوب ودول. تأتي بالاهين والشرائع واللغات والعادات وتتبارى هازئة في محق عمل الاجيال زلازل وبراكين وأعاصير وصواعق وأوبئة وثورات وزعازع وطوفانات — وأنت هنا رابض أمام اهرام انتصبت في وجه القضاء تنقض أحكام الفناء. والهياكل تلتقي بين يديك حديث الدهر بألفاظ الحجر والصوان وتعزّزه بصور الارباب والملوك والسكاة. وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطابها بلاغتهُ وروعتهُ

ها هنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء، مملكة الكتمان والايمان والجلال، وعظمة القياصرة حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة. والانسان المتطاول الشغوف بهتك الاستار يدخل ايوان وحدتك السري ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الاشباح الفانية، وغير ملموس لهذه الايدي الذبابية المتنقلة على مخالبك ومنكبيك مزاحاً واستفصاءً.

غير ان الانسان ليس بالماوح المستقصي خبرُ، بل هو خصوصاً اللاعب المتألمّ. يتناوله من الكون قهراً دوّار الفواجع والنوائب فيدرك ان الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب، وان البقاء الظاهر مصنوع من التغير

(١) توفيت ظهر الاحد الموافق ١٩ اكتوبر ١٩٤١

(٢) نشرت أولا في العدد الممتاز من جريدة السائح التي تصدر في أميركا

والتحول . يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر . يدرك ان عجاجات القوى تسبح جزافاً في شلال الدراري والاسمال الجارف الآلهة والمحاربين والشارعين والقديسين والانبياء والقتلة والقتل سواسية . يرى التعاسة على طريق العروش والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين . يرى الاعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها العوز والبطر ، والمرض والعافية ، والخيانة والامانة ، والدعوى والتطير ، والضلال والهدى . وازاء ما يفطره ويعذب سواه يظل الكون على ما هو والخلائق والاشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة وكل ما خال منها وشيكاً كان نهاية تعقبها بداية ، وانقاضاً تستوي عليها الاسس

واذ يزفر طالباً لمحوادث تفسيراً يقال له « هذه هي الحياة ! » « ما هذا الا الحياة » « لا تكون الحياة الا كذا » نعم يا أبا الاهوال السامي ، ازاء الهبة والحرمان ، والوفاء والغدر ، والبياض والسواد ، والفخار والمذلة ، والغلبة والاندحار ، ازاء كل مسرة وكل توجع التفسيرُ واحدٌ لا يتغير : انا نفسر الحياة بالحياة ، ونداوي داء الحياة بفصل الحياة ، ونهرب من الحياة لنحدنا والحياة وجهاً لوجه

***

وانا سورة من ملايين الصور الحيوية نبعث انفسهم الحياة كما نهض جميع اولئك الساكنين . وكما وقفت قديماً على طريق طيبة تلقي الاسئلة على العابرين وقفت أسأل أبناء السبيل عن معنى الحياة . فقال أحدهم « هي صدر الأم »

فالتصقت بصدر أمي فاذا أنا منهُ في عش دفء وحرارة وحصن مناعة وامان ، لا ترعبني الرياح العاصفة ، والرعود الداوية ، والبروق المتلعلعة والسيول المتدفقة . ومرَّ يوم فضاق بي صدر امي وعدت الى موقفي أسأل « ما هي الحياة »

فأجاب مجيب «هي الدين والتقوى»

فبادرت أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفية اداة التقشف والامانة تحت مزركش الاثواب ، وأقرع صدري مستغفرة عن آثام لم أرتكبها وذنوب لم تخطر على بالي فتاجئني الصور الصامتة في أطرها وهمت لي الصلبان بتكال الحربة والمسامير فرَّ يوم ، وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً انقلب كالمرمر صلابةً

وبرودةً . وصارت الطقوس الدينية ترتيلاً مرسجًا . وأرواح البحور التي كانت تنزل عليَّ فيض الوحي والالهام غدت مزمجة كمطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف فعدت الى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتشرُّف ؟ »

فضيت أساجل مرآتي فتمشقت صورتي فيها . ولم أكن أفارق تلك الصورة الا لابحث عما يزينها ويجملها . وكان يبكيني مشهد الباكين . فأصبحت وقد تذوّقت لذة اللهو واللعب في فصل خيوط القلوب . ومرَّ يوم فأطل شبح الملل في عيني . فعدت أسأل أبناء السبيل « ما هي الحياة »

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال « هي الثروة والجاه العالي وأبهة العمران »

فعدوت في سبيل هذه ، سوى أني لم أصرف ساعة حتى تحجر كياني فعدت واليأس يسحقني أسأل « ما هي الحياة »

سألتُ طويلاً وبكيتُ عزيزاً وقنطت حتى طلبتُ الموت فانتثرت صورةٌ من غور عنائي . لم تتكلم وانما فهمت أن الحياة عندها . أرأيت يا أبا الهول ، النجوم راقصة ؟ بلحظة تحلل ثابت النواميس فرقصت جميع النجوم حوالي وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت ، وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد ، أو نفرت بلسع خط من خطوطه وانتحال معنى من معانيه . فاستحدثتْ جميع الاشرقة نورها من تألق عينين اثنتين ، وصارت زرقة الجوّ وبهجة الربيع وملاوة الامواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة — البسمة البطيئة الرقيقة النادرة . واستدعتني الألوهية الى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب الوجود وقتُ واياهُ بادارة حركة الأكوان . فمرَّ يومٌ فقمعت ثورة النجوم وقدمت خضوعها للنظام الأوحد ، وعادت لكل كائن أهميتهُ في الخليقة . فرجعت أسأل العابرين « ما هي الحياة ؟ »

فقال صوت العلم الرزين « أنا الحياة لأني أشرح الحياة »

فألقيت بنفسي في الخضمّ الزاخر أعالج العلم المادي تارة والفلسفة الروحانية أخرى . كم من علم خلقنا ، أيها المليك ، لنبحث عما لا يعلم ، وكم من لغة أبدعنا

لتشرح ما لا يشرح : فهداني الجهابذة الى القوة التي يتم بها التفاعل الكهربي بين الاجرام العاقة وغير العاقة فلا تفلت من عناقها شيء ولا ذرة : الجاذبية فسألت وما هي هذه الجاذبية ، من رآها ، من سمعها ، من لمسها ؟ أهي وسيط يتنقل على نموذج الاثير ، أم هي سيال يتموّج بنفسه مستقلاً عن العناصر ؟ فأجابوا « ذاك سر الحياة وهو مجهول »

الحياة ! مجهول ! لفظتان تمثلان الانفعال والاتحاد جميعاً

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطرائف ناعمة ، منذ اربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ اربعة آلاف سنة ، والعلم يقلب الذرة الواحدة منها ويديرها ، ويقسمها ويجزىء تقسيمها . لقد أوسعها بحثاً ، ونحرها درساً ، وقتلها تشريحاً وتحليلاً متلمساً علّة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها . فصارت جهوده من مجهول الى مجهول ومن استفهام الى استفهام ، وما زال مثلي أنا الطفلة الغريرة يسأل « وما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

وهكذا طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لانهم لم يفهموا والقليلون الذين وقفوا وأجابوا أرهفوا فيّ اللجاجة والحرقة والاسى

***

يا وليد بابل أم السحر والتعاويذ ، الى أي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ لماذا جعلوا بين كتفيك درجات خفية تفضي الى سرداب امتد وتاه في مجاهل الاهرام ؟ لماذا أودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون الآلهة الهواتف ولماذا لا يعرف موضع أصغرك الاجوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كرّ الاعقاب

تفتر شفتاك دون كشف واعلان ، أتأكيد هذه البسمة أم ايهام ؟ أإشفاق على دماء الفداة وقد أذيبت فيها الاوحال ؟ أم لان كل ما هو كائن أقلص من ظل حصاة حيال ما سيكون

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحيي عُدّة من منبعه الى مصبه لما يظهره من أريحية ووفاء ، أتدرك معنى احمراره الصيفي ومعنى خصبه ؟ أتفهم معنى شكل هندسي تجلت به اهرامك الخالدة ؟ أنت الذي تحتك الكلدان قبل ان وسموا

دائرة البروج ، أتعلم هل كانت هذه الاهرام مقابر للصحراء أم مدافن للفراعنة أم حصون دفاع ، أم مستودعات كنوز ، أم مجتمع عشّاق ، أم محفلاً يدين فيه أوزريس موتاه ؟ أتعلم لماذا أدرجت أوراق البردي وأسرارها الهيروغليفية في الأكفان مع المومياءات في قلب التوابيت والنواويس ؟ أتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدّس ؟ نحن الجهّال نعلم ان جميع هذه رموز الى الحياة المتحكمة فيناء وأنت ألم يبقَ لك ما يكتسب هيبة لتحول عينيك وتسكت سكوتاً لا ينتهي ؟

أم أنت لا ترقب هناك سوى ما ترقب ؟ أترصد حركة الاصبع الوجهة الابرة المغنطة نحو الشمال تجر بعدها النظم الشمسية وهيئات الكواكب ؟ أم تستعرض مواكب الأنوار والظلمات ، وجيوش الثوابت والسيارات وجحافل الأمكنة والأزمنة ؟ أم أنت تنهجأ اسم الحياة يخطهُ قلم النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم ؟ أم يذهلك تدفق الفيض الالهي من وراء حجب الوجود ليتكوّن اثيراً وهواءً وناراً وماءً وهيولى ؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونتوقع ونترقب ، فهل تعلم ما هذا الذي ننتظره وتنتظره الآماق المنحنية علينا ؟ لقد سُجنّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين ، فنهب نحسبها مقدمة لتحقيق الرجيّة وما هي غير السراب الخداع فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الانتظار مترددين

لقد دفن نصفك في الرمال المنيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم ونحن نعزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظل نترقب ونرجو . . .

أصحيح ان لغزك لغز الدهور أم خلقك الانسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله ؟ لقد أعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة الى السكوت ، ومن الأسد براثن التحمس والاستماتة في القتال الرامزة الى الجرأة ، ومن النسر الجناحين المحلّقين في بعيد المدى الرامزين الى المعرفة ، ومنهُ — من انسانيته — أعطاك الرأس مشيراً الى التبصر والارادة المدركة المتغلبة على الغريزة والانفعال والخيال . فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبهُ ولا يضيف ما بقي ؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل

فتجدد أبداً فيه ؟ أليس أنه مثلك لا لك مثله ؟ أليس ان في أعماقه أبا هول شاخصاً أبداً في السموات العلى كلما نظر بشروق ليث يتوقع زوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة ؟

---

٢ — عائشة عصمت تجرر

... أحصيت الأسباب العمومية لدرس الشاعرة ولكن لدي سبباً آخر وهو مقابلة معنوية جرت لي معها منذ حداثتي القصوى

كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحي متجلياً ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه السري . ونُصب سيران عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة . فما يخيم الظلام الاَّ وتأخذ تعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوسّاعة بتألق الانوار ومعالم الزينات الفاخرة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها

إذ ذاك يهرع أهل الحيّ الى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون الى آهات الطرب الشائعة في الفضاء حتى تتهادى أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل . والأطفال منبطحون بأن يحتضنهم صدر دافئ ويحميهم من أهوال الظلام فتتسلل منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان

كنتُ على ذلك في ليلة فاذا بصوت ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرمن جفن من السحر ام سحر من الاجفان
خال بخديك أم صنع من الديان توهمت فكر الانام في الجفن والخالات[1]

تبارك الله ما أحلاك من انسان

سمعت وأصغيت ليس بنفسي كما كانت صغيرة وقتئذٍ بل بكل قواي الكامنة التي سينميها المستقبل وبكل ما في الأيام التي عشتها وسأعيشها من أهل ويأس وسعادة وشقاء . ولعلي استشعرت ببعض ما سأفهمهُ بعدئذٍ من نجوى الموسيقى

(١) كذا في الاصل . أما أنا فاذكره كما كنت اسمعه « توهمت فكر الانام بالعين والحاجب »

الشرقية ... تقول ان الانسان يجهل كيف ولماذا ولد ، ولكنهُ يعلم انهُ يحتاج الى السعادة التي لم يفز بعد منها سوى بفتيت موهوم . تقول للطفل والشاب انهما أكبر سنًّا مما يظنان ، وتقول للقويّ الظافر انهُ ضعيف مدحور ، وتقول لكل أحد ان حياته كانت الى هذه الساعة خالية سخيفة قحطاء . تقول لهُ ان في الدنيا أموراً لم يختبرها وان جهله لها فقر وضنك وذلّ وعبودية وموت سبق الموت . تقول الاجتهاد والجهاد عقيم النتائج لان العمر قصير سريع العطب ، وان كل لحظة يجب ان « تعاش » بأكملها ليستخرج منها أقصى ما تكن . تقول ان القلب روي بالعبرات ينتظر اليد القادرة تضرب عليهِ ليتفجّر كصخرة موسى . . . واذ تنطلق الاصوات صائحة كالاجنحة في فردوس من الالحان ، ثم تصبح منفجعة منتحبة : ثائرة عاصفة تلج وتتمادى بخيل ان الفزع قد جوّف تحتها هاوية تتراءى فيها الاصداء المرتعشة فتعكف النفس على حافتها ، ووحدتها وحيرتها بين هذه الهاوية وذلك الفردوس ، وتطلب التوازن والراحة في سحر الحب وذوب الحنان . . . ولكن العمر قصير سريع العطب ، وكل ما فيهِ موسوم بوسمه . . . ولكن الحياة مراوغة في استقامتها ، وشحيحة في كرمها ، وكل ما فيها كريم شحيح مراوغ مستقيم

هذا بعض ما قالهُ لي فيما بعد شهيق الاوتار ، فهل فهمت منهُ عندئذٍ شيئاً ؟ لا أدري . ولكن كم ذا انتقش الظلام بالمعاهد الخلابة لذكر ذلك الشخص العجيب الذي لم يكن أحد يعلم هل كان جمال عينيهِ كحلاً أم صبغاً من الرحمن ! ذاك الشخص الذي تاهت بهِ أفكار الناس فتجمهرت لتهتف : تبارك الله ما أحلاك من انسان ! أتتصورون أثر هذا الرسم في مخيلة صغيرة شديدة التيقظ ، وفي نفس ليّنة ترتعش أمام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زهمة في الافق الازرق

***

ولطالما سمعت هذا « المرال » بعدئذٍ من منشدين أصوليين وغواة يقبلون عليهِ إقبالهم على جميع الادوار النصرية الشوقة . ولكن أكانوا يعلمون من هي هاغرتة

أرجح ان تلك كانت نشوة الموسيقية الاولى فأبقت في أثراً كأنما هو اشارة من روح التيمورية تنبهني. وما تبينت تلك الاشارة الا عند مطالعة ديوانها والاهتداء الى ذلك «الموّال» فيه. فأدركت انها حدثتني منذ زمن بعيد تلك الروح التي غاصت نشأتها الحزينة الطروبة في أرواح المنشدين فغنّت على أوتارهم ألحاناً، وانطلقت على أمواج الهواء فنّاً وتغريداً وابداعاً. وهكذا تلك المرأة التي وقعت زفراتها في وحدة خدرها وراء الحجاب، صار الشجن والطرب منها فنّاً لآلاً تتناقلهُ أجواء الاقطار وتتأثر بهِ ليالي الافراح في نازح الديار

كذلك برقت التيمورية في تلك الظلمة وكان ذلك النور منها رمزاً لنور آخر خطير. ان عائشة عصمت ظهرت حين كانت المرأة في ليل دامس من الجهل فأضاءت برقاً يبشر بحاضر المرأة المصرية ومستقبلها

٣ — كوليرس

هو هذا الرجل الذي يريد تحقيق ما لم يسبقهُ اليهِ أحد. للناس جميعاً أطماع ومآرب: فهذا يسعى الى الثروة، وذاك يشوق الى الحب، وذلك يرغب في التزدد والتفوق. القائد يبغي فتح المدينة ظافراً، والملك يسره التحاف الرعايا حول أريكته، والعالم يتفرغ لمعالجة الذرات والعناصر، والمكتشف يودُّ استجلاء سر من أسرار الطبيعة. أما هذا الرجل فقد حلّق فوق كل فاز وكل عظيم لأنهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً

هو فقير فارغ اليد، يُنظر اليهِ بالريبة والتحذر لأنهُ غريب في قومه وعشيرته. هو شاذ مجنون لا يشبهه الآخرين. ماذكر الاّ ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجمهُ السافلون بأقذار سفالتهم، ولوّث اسمهُ الخاملون بأوحال خمولهم

أما أنت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب، فتقدم تجد ان هذا الرجل ليس لهُ من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول، ولا من الآخرين المذلة والسكتة. في ذلك الوجه تدرك إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية. وعلى تلك الجبهة ترى

وسم المجد وقد حاذته علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب . وفي تينك العينين تبصر تعاقب التثبت والاستقصاء بنظرة تتنقل فيك وقد توحد عندها غور الهاوية وشروق الوحي والرؤيا . ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط به من الناس والأشياء ناظراً الى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو أبعاد قصية نحو شواطىء مجهولة ، نحو خراب سيصير بهمته عمراناً عتيداً

هذا الرجل هو كولمبس الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على مرور أربعين قرناً . هذا الذي لا بيت له لم تعد تسعهُ القارات الثلاث . والبلاد والرياض والروح التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر ، وتكيفت في رحابها الحضارات والأديان والأنظمة شكلاً بعد شكل — قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلة من ذكائهِ للتقرب الى أرباب بلاد أخرى فعطفت عليهِ ايزابلا الاسبانية ملكة قشتالة وحبتهُ بسفن ثلاث كاملة التجارة جاهزة للعدة فمضى نحو ذلك المجهول المنشود

***

لشد كولمبس شراعه على البحار بيد انهُ ما خطا الخطوة الأولى وراء عمود النور الا وتكشفت له الأخطار والمصاعب ، فبله وصل الصينيون الى الحد الأقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية وبراكين اميركا الجنوبية . فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين قبلهُ . كاد النروجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من أميركا الشمالية فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سويداء الصحارى المائية فأحجموا أمام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عتيداً . انعقدت لهُ الأيام على صفحة الماء أسابيع وتكونت الأسابيع شهوراً دون ان تقع عيناه على أنس الشواطىء . فتابع المسير عتيداً . الأمواه الكئيبة تحدق بهِ من كل جانب ، والوحشة الفيحاء توسع الآفق حواليه ، وعمارة السفن يشكون ويتمردون ، وتفاد الزاد يهدد بالموت جوعاً ويشير بالعودة . ولكن عزيمة الصنديد لم تتزعزع ، وظلت بصيرته ترى ما كان دونهُ الأبصار وفي وسط الغم واليأس بسمت يوماً أرض الميعاد وراء بحر الشواطىء وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب

٤ — شذور وحبب

حكمة اليوم في مذكرتي: تقول ان الدعة أقدر من الحدة. كما ان أعظم الدهاء يكون أحياناً في البساطة

***

كيف أشفق على الذي يدّعي أنهُ في الشكاية والتظلم فلا يبقى منهُ ما يستدعي الشفقة! كل شفقتي تتجه اليك أنت الذي لا تشكو مع ان ألمك الصامت لا حدَّ له ولا نهاية

***

هل من سبيل الى حل عقدةٍ تستوجب القطع، وكلما لمستها علمت ان خيوطها من نياط قلبك؟

***

من خساسة النفاق أنهُ يتكلم بلهجة تحاذي الصدق ويتلوّن بلون الواقع المحسوس

***

الألم الكبير نطهير كبير

***

الاختبار والعلم يصقلان العبقرية ولكن لا يقومان مقامها

***

الألم محسن كبير لانهُ يجرّدنا من الغرور والدعوى

***

سؤال صغير كنت أعيده على تلميذ يوم كنت أتسمع على مقاعد المدرسة، للكاهن الصالح الذي كان يشرح لنا التعليم المسيحي، وما زلت اردده اليوم بلجاجة أشدّ وحرقة أعمق: لماذا... لماذا يخلق الله الأشرار؟

***

يحسب بعضهم ان السدود التي يجتهدون كثيراً في اقامتها تكفي لإطفاء نور الشمس وتضييق رحاب الفلك

***

جبّار هو ذاك الذي يكون شعاره في الحياة: «سأتألم ولكنني لن أغلب»